الثقافة والمثقفون.. الواقع والطموح

الحديث حول الثقافة والمثقفين، حديث جميل وصعب في آن واحد، جميل لأنه مرآة الحياة الى الحقائق وجواهر الأشياء، وصعب لأن وظيفة الثقافة الحقة تقوم عليها حضارات وتتجذر بها عادات وممارسات تحكم سلوكيات الأمم وتحدد مصيرها بين سائر الأمم الأخرى.

ومن هنا سنحاول أن نقف عند هذه المفارقة الصعبة، لنقرأ بعضاً من معالمها وواقعها الذي نلمسه كل حين بل وفي كل لحظة من واقعنا المعاش، وما نشاهده من تفاعلات قائمة بين المثقف والمحيط من مجتمع وسلطة ونظام، والمواقف التي يتخذها اويفرض عليه اتخاذها تجاه أوضاع كل واحدة منها على حدة، باعتبارها المحاور الاساسية لتفاعل الثقافة مع معطيات الحياة بكل تفاصيلها وأحداثها.

فالثقافة الحقة هي التي تبقى وتظل مخالفة للواقع السيء والمتخلف، بل وتسعى لتغييره واصلاحه لحواجهو آخر أفضل تسود فيه القيم والمناقب السامية، أنواع الثقافة:

هناك نوعان رئيسيان من الثقافة:

أولاً: الثقافة السياسية أو التي تهتم بأمور الناس وقضاياهم المصيرية، وبالذات فيما يرتبط بالحريات، كحرية الرأي والتصويت أو حرية ممارسة الطقوس المذهبية والدينية وما أشبه.

وتندرج الثقافة وفق مفهومها هذا إلى قسمين:

أ – ثقافة تدفع الناس نحوالتحرك والانطلاق والسعي الجاد للتغيير والاصلاح.

ب – ثقافة تشد الناس نحوالأرض وتكرس فيهم روح التبعية والخوف والتراجع والخلود إلى الدعة والراحة.

ثانياً: الثقافة الاجتماعية، التي تتلخص في الأعراف والتقاليد التي يبني عليها المجتمع حياته بما يضمن سعادته ورفاهه في ظل قوانين يتمسك بها الجميع من دون وصاية من أحد، وهناك أيضاً نوعان من الثقافة الاجتماعية:

أ – ثقافة تدعو وتحث باتجاه تحكيم القيم والمثل النبيلة كالتعاون والترابط والألفة.

ب – ثقافة تشد الناس نحوالسلبية والتفكك والانعزال وزرع روح الهزيمة في النفوس.

ولكي تكون الثقافة الإسلامية عنصراً هاماً وبناء فعالاً لابد من أن تكون متكاملة بمعنى أن تكون ثقافة سياسية واجتماعية للعلاقة الجدلية التي تربطهما، وأن تدفع الناس باتجاه القيم والمناقب الرسالية السامية وتحرك فيهم روح المسؤولية والعطاء من أجل تغيير الواقع الفاسد والمتردي، واصلاحه، فالاصلاحات الاجتماعية عادة لا تتجذر إلا عندما تحركها ثقافة صادقة نشطة.

الثقافة الأزمة..

وعلى ضوء ذلك فإن المثقف الذي يحمل رسالة كالمرآة التي تعكس تفاصيل الامور بسلبياتها وايجابياتها، ولذلك غالباً ما يحدث تعارض بين المثقف والسلطة القائمة التي تعتمد التضليل والتعتيم لوجودها غير المشروع أوالفاسد، ومن هنا تكون الأزمة.

*** الفكر الاسلامي يمتلك القدرة الفائقة على ابلاغ دعوته بصورة افضل الى العالم**

أزمة المثقف مع السلطة

إذ تقوم السلطة بدافع الجشع وحب السيطرة، بتكميم الأفواه، وتكسير الأقلام، وتقييد الحريات، فتتحول الأمور التي ترتبط بأوضاع الناس من سيء إلى أسوأ، لأنها مرهونة بتحمل أبنائه من الواعين وأصحاب الكفاءات مسؤولياتهم، وهذا ليس ممكناً في ظروف القمع والارهاب التي تتميز بها منطقتنا الإسلامية.

وأما الأزمة الثانية، فتتلخص في انعدام الحوار، على اعتبار أن احدى أهم مسؤوليات المثقف هي قراءة واقع الأمة والمجتمع ووضع الخطط اللازمة لنقلها إلى حالات التطور والتقدم، ولا يأتي ذلك إلا عبر المزيد من المنتديات والحوارات والنقاشات الهادفة بين مختلف الأطراف والتيارات الواعية ومن يمثلها، حيث أن الاستبداد الفكري قرين الاستبداد السياسي، وهما معا من نتائج التخلف، ومن أسبابه معاً، فلا بد من فتح باب «الحوار الفكري» مع الثقافات الأخرى، ولكن ليس بالطريقة الديكتاتورية التي فرضت على شعوبنا «الاغتراب» الذي انتج الاستلاب الفكري والروحي والعقائدي وخلف الدمار والعجز والتبعية.

الحوار الثقافي – مع الجميع وعلى اساس من الشعور بالعزة والاستقلال – وإلا فإن شعار الحوار يتحول إلى طريق ذي اتجاه واحد كما هوالسائد الآن، حيث الغرب يملي، والشرق منبهر كما التلميذ في حضرة الاستاذ القدير.

مع الحوار الثقافي – مع الجميع، وبشرط التمسك «بالثوابت الأساسية» التي تميز شخصيتنا وثقافتنا وخصوصيتنا الحضارية.

مع الحوار الثقافي – مع الجميع وبشرط أن يتم في جوالحرية المتكافئة، لكي يملك الطرف زمام المبادرة ويستطيع الانتقاء والاختيار، وإلا فإن الحوار سيتحول إلى مجرد شعار يُخفي تحته أبشع أنواع الخداع والتغرير.

غير أننا ينبغي أن نسعى لتأمين جو من «الحرية» يمكن من خلالها إقامة حوار ثقافي مفتوح مع شتى التيارات الفكرية الداخلية قبل أن نسعى لإقامة حوار ثقافي مع الآخرين. وأقصد من «الحوار الداخلي» الحوار الإسلامي – الإسلامي بشتى التفريعات الفكرية وعلى طول التاريخ الإسلامي. وليست هذه دعوة لإحياء «الصراعات الفكرية القديمة، ولكنه دعوة لفتح باب «الاجتهاد» للجميع ودون شعور بالرعب من سيف التكفير «والعزل» والنفي الثقافي.

بطبيعة الحال – مثل هذه الدعوة تتيح المجال أمام نمو الأفكار الجديدة، كما أن الفكر الإسلامي سيغتني بشكل كبير – ويمتلك القدرة الفائقة على ابلاغ دعوته بصورة أفضل إلى العالم.

ولا خوف على الإسلام لأن الحق لا يخشى الباطل، ولأن الخشية التي تعترينا، والخوف الذي يصيبنا، من جراء فتح كل نوافذ الشرفات الفكرية، سوف يؤدي بنا مستقبلاً إلى إصابتنا بالأمراض المعدية، من جراء تعرضنا لمدة قصيرة لمجرى الرياح، لعدم اخذنا للقاح المناعة الفكرية.

إن هذه الشبابيك المفتوحة هي اللقاح ضد الأمراض الفكرية الفتاكة التي نُكبَ بها عالمنا العربي، وعالمنا الإسلامي ردحاً من الدهر...

غير أن ثمة مجالاً لحرية الفكر أتاحه الإسلام نفسه لكي يستطيع الإنسان أن يتحرك من خلاله بغية فهم أفضل للإسلام.. وتطبيق أفضل لأغراضه وأهدافه في الحياة، ولكن في ظل هذه الأوضاع وتشري الخلافات وسيادة روح التنافس السلبي بسبب الأزمات السياسية أوغيرها من الأزمات التي تمر بها الأمة، أدت إلى عزل المثقفين عن بعضهم البعض والثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات بإنعدام الحوار، الذي يأمل ويرجى منه كل خير، وأصبحت الأوضاع في غير اطارها المطلوب، ومن بعض مظاهرها التنابز بالألقاب والنيل من الكرامات والحط من عطاءات الآخرين.

والأزمة الثالثة، هي انعكاس القضايا السياسية، بالذات ما يرتبط بأمن السلطة على الابداعات الفكرية والثقافية، فمحاربة الانتاجات الثقافية والفكرية، تُبقي الأمة في حالة من التراجع والضياع وتجعلها تتشبث بابداعات وانتاجات التيارات المناوئة للإسلام.

فالكتاب أو المجلة الهادفة في هذه الأجواء، لا يتدارس بحكمة ووعي بسبب الخلافات والأزمات السياسية أي كان شكلها. فالذي يصدره كاتب إسلامي من ذلك التيار ولا يقرأه هذا التيار، وكذلك الكتاب الذي يصدر في دولة إسلامية معينة لا يدخل إلى دولة اسلامية ثانية، وهكذا تظل الأفكار في مكانها غير المراد.

فهناك طوق مفروض لدى كل تيار على الأطروحات الفكرية والثقافية والابداعات والانتاجات الخيرة التي يمتاز بها الآخرون، لتحل محلها حقيقة ثقافات القرون الوسطى المشحونة بالضغائن والاحقاد والكراهيات.

وليس من شك فإن على الواعين من أبناء الأمة الصمود أمام هذه الأزمات التي تعرقل مسار الأمة نحو نمو حريتها وسيادتها، بروح ايمانية رفيعة تسموعلى كل القيم الجاهلية وتلتحق في سماء الأمة بكل خير وصفاء.

ما هو واجبنا؟

والسؤال إذاً: ما هو الواجب والدور الذي ينبغي أن يلعبه أبناء الأمة في ظل هذا التردي والتراجع الذي تعيشه الثقافة الأصيلة على الساحة الإسلامية؟

والجواب على ذلك في عدة نقاط:

أولاً: فك الحصار..

إن التفكير الجاد والعمل الدؤوب لإيصال الثقافة الرسالية الأصيلة إلى الأمة، كفيل باكتشاف الطرق والأساليب الجيدة والجديدة لمواجهة التحديات القائمة التي تعترض هذا الطريق، وفي التجارب علم مستحدث وليس أسهل وسيلة لفك الحصار المفروض اليوم بقيد حرية الرأي والتعامل مع الأفكار سوى اكتشاف المزيد من التكتيكات والممارسات التي من شأنها أن توصل نقاء وصفاء الفكر إلى الأمة.

ولذلك فإننا مطالبون اولاً بتحدي كل العقبات والعراقيل التي تحول دون إيصال الأفكار الواعية ونشرها في الأمة، وذلك بالمزيد من الممارسات الذكية الواعية التي تكشف لنا عن الثغرات الهائلة في خطط الأعداء.

وأما بالنسبة للتيارات الإسلامية المتعددة فنحن مطالبون بايجاد صيغ حكيمة لفتح مجالات للتعامل والتعاون بين مختلف هذه الأطراف، فالأرضية التي يقف عليها الجميع واحدة، وإن اختلفت أساليب العمل، وكما أثبتت التجارب العملية فإن الجميع على استعداد لفتح قنوات الاتصال والتفاهم والتنسيق بشأن العمل الإسلامي وما يرتبط به، وكل ما في الأمر هو فقدان عنصر المبادرة وعدم الانفتاح، ولذلك نرى ضرورة اصرار الواعين على فتح قنوات الاتصال مع كافة الأطراف والتيارات العاملة على الساحة حتى يمكن تدوير الثقافة الصالحة بحيث تنتفع الأمة من ايجابياتها العظيمة.

*** لكي تكون الثقافة الإسلامية عنصراً هاماً وبناء فعالاً لابد من أن تكون متكاملة وشاملة**

ثانياً: زرع البذور وثورة المعلومات..

استدراكاً لواقع الأزمة التي يعيشها كل من المثقف والثقافة نؤكد أن الطوق المفروض قد يحصر فئة معينة وأشخاصاً معينين أو قد يكون يحصر نمطاً معيناً من الممارسات الثقافية وعلى أسلوب معين من العمل الثقافي، ولذلك لا ينبغي الانكفاء هنا، بل تبقى ضرورة المراهنة على خطط وأساليب جديدة، تتم الحركة من خلالها في الساحة.

ومن الخطأ التمحور حول أسلوب محدد من العمل الثقافي، أويكون جل الاهتمام بنمط معين من أنماط نشر الفكر والثقافة السليمة، حقاً إننا نعيش اليوم عصر الذرة وثورة المعلومات وحري بأبناء الأمة، أن يكونوا طلائع هذه النهضة لايصال كل الحقائق والمفاهيم الساميةإلى الجماهير العريضة من أبناء الأمة الإسلامية.

فكم من بذرة أثمرت على بضع من قطرات الأمطار، لم تكلف الإنسان عناء الحرث والسقاء، وكم من شتيلة أحاطها مربيها بعنايته واهتمامه ذبلت ثم تلاشت إلى العدم، وهكذا هي حياة الأفكار، فلنكثر الابداعات، ولنتحلى بروح العزم والمبادرة حتى تكون لدينا القوة والقدرة الكافية لتحريك الأحداث إلى صالح الرسالة التي نتحملها ونسعى من أجل تحقيقها.

وبذلك وبمقدار التحرك والاصرار الايجابي يمكن الخروج من نفق الأزمة إلى رحاب الحضارة، وهو الأمل الذي يحدونا ونتطلع اليه باستمرار.

حبيب آل جميع

الروائي علي بدر و«صخب ونساء وكاتب مغمور» في المدينة

ما أن قرأت الصفحات العشرين الأولى من رواية علي بدر «صخب ونساء وكاتب مغمور» حتى اتضح لي ان العنوان يحمل إشكالية مركبة، الصخب وهو نوع من فوضى المدينة، والنساء، هذا الكيان المغلق الغامض الأبيض المحجوز جزء من ثقافة المدينة، والكاتب المغمور الذي يرث الساحر والدجال، يعمل راوياً في المدينة. جاء الثلاثة لينصبوا خيمتهم في بغداد، وفي منطقة حساسة بتغيراتها هي الكرادة. فانتصر أن يكتب عنها كثيراً للفيض الذي هي فيه. في الصفحة ٢٥ من الرواية يقول: «ليس بالضرورة أن تحيا في حي أرستقراطي رزين من أحياء باريس كي تكتب صفحة جميلة، صفحة ملونة مثل هندي يضع أصباغاً على وجهه، ولكن يكفي أن تكون نقياً جداً ومنهجياً ونظيفاً ومدققاً ومحترماً وليس بالضرورة منزوياً أو متأملاً.. ولكن رجل مدينة.. نعم.. رجل مدينة يأكل الجمال مثل كلب جائع، يعيش على قلة من الأشياء».

ماذا يريد الكاتب أكثر من هذا اننا بصدد رجل مدينة يكتب رواية فيختار منها شارعاً أو بقعة، ويروح جامعاً فيها مناخاً وحياة مدينة كاملة. لعل منطقة الكرادة في بغداد، شارع «إرخيته» يشكلان بقعة خلاقة من بقاع الجغرافية الحية التي تمد الكاتب بتصورات حديثة عن العلاقة بين السرد والمدينة، بين تقلبات السوق وتقلبات الناس، بين تنوع العمل وتغيير الوظائف، بين بهرجة السوق وبهرجة النساء. هذه الأرضية اليومية المتغيرة الصاخبة، هي ملامح أية مدينة متحولة. والمؤلف كما يبدو من سياق الرواية، يسعى لرصد حركة التحولات. ولذا لا نجده مستقراً في مكان فيها، ولا في سياق سردي واحد. فالمنطقة التي يتعامل معها هي أحد أهم الأماكن التي تجاورت فيها كل مكونات الثقافة العراقية. منطقة حية، متجددة، صاخبة، ونظيفة، وحاملة للعديد من تكوينات الفن، والقوميات والأديان، والأزمنة والأمكنة، والمهن والأعمال، والأزياء الحديثة والتقليدية، والشخصيات القديمة والشابة، المتعلمة والأمية، الشريفة والسيئة، العاملة والعاطلة... الخ منطقة ممتلئة بالحداثة مثلت في السبعينات وجه بغداد المتحولة.

الرواية العراقية عموماً ليست رواية المدينة، كما يفترض ان تكون الرواية، بل رواية القرية والأرياف والبلدات الصغيرة. المدينة العراقية بما تملكه من عراقة وقدم لم تشكل أرضية بعد في تصور المؤلفين. إلا ما ندر – لفن الرواية العراقية. والخلل كما يبدو في المؤلفين الذين لم يكتشفوا بعد طبيعة العلاقات التي تشكل نسيج المدينة ومناخاتها ونوعية أحداثها واختيار شخوصها، وهو تصور يمكن تلخيصه بنقطتين: الأولى عدم فهم تركيبة وطبيعة الطبقة الوسطى العراقية، والثانية عدم دخول المؤلفين ميادين عمل وتشكيلات البرجوازية العراقية التجارية والصناعية وهما أرضيتان لا يمكن لأي رواية أن تقوم في المدينة بدونهما.. حتى روايات غائب طعمة فرمان التي تتحدث عن بغداد، كانت روايات ببنية ريفية تحدث فيها عن بنية المحلة الشعبية، وليست عن العلاقات المدينية المعروفة. ويمكن القول، ولو بحدود، أن رواية «الرجع البعيد» لفؤاد التكرلي، واحدة من الروايات التي لامست العلاقة بين المدينة والريف عندما جسدت مرحلة الصدام بين مثقف المدينة وهمجية الريف فانتصر للمدينة وهو ينقل طرائقها الأسلوبية والشخصية بين بعقوبة /الريف، وبغداد /محلة جديد حسن باشا. وما عدا ذلك كل ما في روايتنا العراقية العراقية – حسب ما قرأت – هو نتيجة العلاقات التي تنمو في البلدات الصغيرة، المنطقة المتأرجحة بين الريف والمدينة.

الروائي علي بدر يقيم روايته «صخب ونساء وكاتب مغمور» في المدينة،

المتحولة من الريف وتحولاته، وهي منطقة الكرادة التي يصفها في مقطع صغير يطلق عليه صورة. «كانت الكرادة خانات قديمة،وبساتين للنخيل والزيتون والليمون، طوقتها البيوت الحديثة من جهة النهر، وفي العمق زحفت اليها مصابيح البترول حيث كان الجنود الإنجليز يلعبون القمار تحتها، وبعد أن اخترقتها الربلات السود والباصات الخشبية من ساحة الباب الشرقي، ومن جهة النهر كانت تتدفق اليها قفف القار التي تحمل البطيخ، وكان الإنجليز والسيخ والكركة يختزقونها بالسيارات الكاكية «...» ثم تحولت الكرادة إلى متاجر ضخمة: محلات بيع، محلات عطور، دكاكين ملابس، «اكشاك زهور»، شركات سياحية، مطاعم فخمة، منازل وقصور...جوامع، كنائس «...» الخ هذه الصورة، الواسعة والمتحولة من ثقافة البستان إلى ثقافة الشركات والإنجليز والجيوش المحتلة تفصح عن تفهم جيد لمكونات منطقة معينة من بغداد وهي الكرادة الشرقية. وعلى هذه الأرضية القلقة بتاريخها المتشابكة بعلاقاتها اقام علي بدر بيت روايته مصطحبا معه ذاكرة استوديو للتصوير وشخصيات طارئة ومقيمة في المنطقة وطريقة سرد متنقلة متقطعة محاولة منه القفز في كل الأكمنة والأمكنة وهو يقدم لنا تصورا ومعايشة عما يمكن أن يحدث أو ما سوف يحدث.

في مجمع هذه التحولات والتبدلات ترتسم لك صورة مدينة لا تجمعها شخصية ولا يؤرشفها مكان، حيث الرواية عبارة عن تراكم من مقطعات سردية متجاورة غير متعاقبة، يربطها خيط الراوي الصوري والفكري، في سياق نسيج من التعامل التخيلي للواقع. فنراه يعدد المداخل، وينوع المخارج، ويستجمع المفردات المتناقضة ويلغي الكثير الذي يمكنه ان يتابع حياة شخصية او فكرة. فالقص يعوم في بحر المظاهر العيانية للمنطقة، ليلتقط كلمة من هنا، وصورة من هناك، ومفردة مستنبطة، وأخرى حلمية، ورابعة مستدعاة من الذاكرة، وخامسة مفترضة، ليجمعها في بوتقة الساحر الذي سيطلق كل غرائبه أمام زبائنه. ومن هنا فالرواية التي لن أتحدث كثيراً عن تفاصيلها، ترسم إطاراً معرفيا لجغرافية المنطقة لتعرفنا على شخصنتها الخاصة. هذه المنطقة التي وقعت عليها أفعال الاهمال والتغيير والحروب فغيرتها من الريف إلى المدينة.

ياسين النصير

العمود الثقافي

عماد الخزعلي
Imad_alkhazali@yahoo.com

الامام الصادق «ع» يبكي عبدالله الرضيع «ع»

ياسيدي ياجعفر يا صادق القول.. ياابا‌عبدالله يا ابن الرسول.. ما عساني بحقك ان اقول.. فأينما ذهب المرء شرقا او غربا.. شمالا او جنوبا.. لا ينال من العلم الا علمك فعندك يجد ظالئه.. وعندك تطمئن روحه.. وعندك يعرف اليقين.. لانك العلم الوافر والنبع الصافي.. فنبعك نبع خاتم الانبياء«ص» الذي بابه الامام علي«ع» وبيتك بيت فاطمة سيدة نساء العالمين الذي لا سقف عليه سوى عرش الرحمن.. ياسيدي يابن الرسول ما عساني بحقك ان اقول.. وانت الغصن العلوي الاخضر في شجرة النبوة.. الشجرة التي نورها نور محمد وعلي كما قال جدك «صلى الله عليه وآله»: «ياعلي الناس من شجر شتى وانا وانت من شجرة واحدة».. وانت الثمرة الطيبة التي تعطي للنفس ما تشتهي وانت الطيف الجميل الذي يمر على الجفون، ويقبل العيون ويرسم في الاخيلة اضرحة النبيين، والصديقين ويرسم منابر الحسين«ع» المنابر التي تزيل عن ابصارنا ظلمة السنين.. وتنير لنا وحشة الطريق وتحصن نفوسنا من اغراءات الشياطين ومن عبثة الطالين والمعاندين.. ياسيدي كثيرة هي الدموع التي ذرفتها على مصيبة جدك الامام الحسين«ع» يوم عاشوراء لكن اشدها وقعا على نفسك وروحك الشفافة هي الدموع التي احرقت فؤادك في مشهد ذبح عبدالله الرضيع«ع» ابن سبط الرسول«ص» الذي جف كبده من العطش، وجف كبد ابيه من الالم وجف صدر امه الرباب من الضما.. نعم ياسيدي فهذه الصورة لم تفارق خيالك قط وانت ترى سيد الشهداء«ع» يجود بنفسه وطفله الرضيع بين يديه يتلوى من ألم النبلة الشيطانية التي رماها نجل الشيطان الرجيم ومن ألم الظما ومن حر الصحراء وتكالب الاعداء على ابيه الحسين حامل لواء الدين.. ماذا اقول ياسيدي يابن الرسول وانتم السارية وانتم الراية لدين الله سبحانه ياباعبدالله ايها الصادق وانتم قرآن الله الناطق.